الزلازل ، وما أحمله للمصائب ! إنه ثابت ثبات الجبال ... إلخ ،وقد يوجد من يصبر ، حتى لا يعاب بأنّه جزوع هلوع ، وحتى لا يشمت به الأعداء كما قال الشاعر :

وتجلدى للشـــامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وقد يوجد من يصبر ، لأنه لا يجد غير أن يصبر ، فلا فائدة فى الجزع ، وإذا جزعت الآن فسوف أنتهى إلى الصبر ، وإذن أصبر الآن ، ثم يصبر وهو لا يخطر بباله أن يرضى الله عزّ وجلّ .

فمزية هؤلاء العقلاء أولى الألباب أنهم إذا صبروا فعلوا ذلك ابتغاء وجه ربهم ، وهذا تعبير قرآنى : أنهم يحتسبون هذا الأمر عند الله ابتغاء مثوبته لا يريدون شيئًا للنفس ولا للغير ، إنما يريدون وجه الله عزّ وجلّ .

هناك بعض دعاة الأخلاق يتحدثون عن شىء اسمه الواجب « دعاة الواجب » ومنهم (كانت) الفيلسوف الألمانى الشهير ، هؤلاء يقولون : إن الدّين لا يعرف الأخلاق القائمة على أمر الواجب ، إنما يقوم فقط على العمل من أجل الجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ونسوا أن القرآن يحث ويربط الإنسان أن يفعل ما يفعل لوجه الله عزّ وجلّ وإرضاء له ، ولاينافى ذلك أن يطلب مثوبته ويهرب من عقوبته ؛ لأن المعيب هو أن يطلب المصلحة المادية الآنية الشخصية العاجلة ، أما أن يرنو إلى ما هو أعلى من ذلك ، وما هو أبعد من الدنيا ، وما هو أوسع من المصلحة الشخصية ، وما هو أعمق من الناحية المادية فهذا لا يعاب .

فهؤلاء أولو الألباب وصفهم القرآن بأنهم : صبروا ابتغاء وجه ربهم ، كما جاء فى القرآن ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] .

الصبر لله عبادة :

ولهذا كان صبرهم عبادة لله سبحانه وتعالى ،والعبادات ليست هى الظاهرة فقط من الصلاة والزكاة والصيام والحج والتلاوة والذكر والتسبيح ، ولكن هناك عبادات باطنـــة منها الصـــبر لله ســبحانه وتعالى ، وأنا أسميها (الأخلاق

الرّبانية) ، كما أن هناك أخلاقًا إنسانية ، الصدق والأمانة والتعاون والنظام والعدل والإحسان والوفاء ، وهذه تشترك فيها الأمم دينية كانت أم غير دينية ، وثنية أم غير وثنية ، ولكن ما يميز المؤمنين عن غيرهم : أن أخلاقهم فيها هذا العنصر الربّانى ، فهم حينما يوفون بالعهد : ﴿ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ ، وحينما يصلون الأرحام أو يحسنون إلى الناس يتذكرون أنهم ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، وحينما يصبرون ، يصبرون ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ .

المزج فى القرآن بين العبادة والأخلاق :

ولذلك أنا أقول دائمًا : إن هناك مزجًا فى القرآن وفى الإسلام بين العبادة والأخلاق فليس هناك انفصال ، فالعبادة ضرب من الأخلاق ، والأخلاق ضرب من العبادة ، والإنسان يتعبد لله تعالى بالأخلاق ، فالأخلاق أوامر ونواه ، والدين نفسه أخلاق ، فالله سبحانه وتعالى حين وصف المتقين قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] فوصفهم بوصف أخلاقى ، وكما فى سورة الحجرات أيضًا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] فهذه أيضًا أوصاف أخلاقية وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] فهناك ارتباط وتمازج وتلازم بين العبادة والأخلاق .

الصبر لله والصبر بالله :

وهذا الصبر ابتغاء وجه الله هو الصبر لله ، وقد ذهب بعض المتصوفة إلى أنه أضعف من الصبر بالله ، هكذا ذكر الشيخ الهروى فى المنازل وردّ عليه المحقق ابن القيم فى « المدارج » قال الهروى فى « منازل السائرين » ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ : « وأضعف الصبر : الصبر لله ، وهو صبر العامة وفوقه : الصبر بالله ، وهو صبر المريدين وفوقه : الصبر على الله ، وهو صبر السالكين » .

تحقيق ابن القيم فى الفرق بين الصبرين :

قال ابن القيم شارحا ومعلقا :

معنى كلامه : أن صبر العامة لله ، أى رجاء ثوابه ، وخوف عقابه . وصبر

المريدين : بالله ، أى بقوة الله ومعونته . فهم لا يرون لأنفسهم صبراً ، ولا قوة لهم عليه . بل حالهم التحقق بـ « لا حول ولا قوة إلاَّ بالله » علما ومعرفة وحالا .

وفوقهما : الصبر على الله ، أى على أحكامه ، إذ صاحبه يشهد المتصرف فيه . فهو يصبر على أحكامه الجارية عليه ، جالبة عليه ما جلبت من محبوب ومكروه . فهذه درجة صبر السالكين .

وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام ؛ إذ هو فى مقام الصبر ، وقد ذكر : أنه للعامة وأنه من أضعف منازلهم ! .

هذا تقرير كلامه .

والصواب : أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة منه وأجل ؛ فإن الصبر لله متعلق بإلٰهيته ، والصبر بالله : متعلق بربوبيته . وما تعلق بإلٰهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له : عبادة . والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر . فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به .

وأما الصبر له : فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين ، وأصحاب مشهد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له مرضى له . والصبر به : قد يكون فى ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له . وقد يكون فى مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا ؟ .

وأما تسمية « الصبر على أحكامه » صبراً عليه . فلا مشاحة فى العبارة بعد معرفة المعنى . فهذا هو الصبر على أقداره . وقد جعله الشيخ فى الدرجة الثالثة ، وقد عرفت بما تقدم : أن الصبر على طاعته ، والصبر عن معصيته :

أكمل من الصبر على أقداره – كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام – فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة ، والصبر على أحكامه الكونية : صبر ضرورة . وبينهما من البون ما قد عرفت .

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم فى الله باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم : أكمل من صبر أيوب على ما ناله فى الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله .

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف .

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله . والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره . والله المستعان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فإن قلت : الصبر بالله أقوى من الصبر لله . فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته . وما كان به لم يقاومه شىء . ولم يقم له شىء . وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير . والصبر لله : صبر أهل العبادة والزهد . ولهذا هم – مع إخلاصهم وزهدهم وصبرهم لله – أضعف من الصابرين به ، فلهذا قال : « وأضعف الصبر : الصبر لله » .

قيل : المراتب أربعة :

إحداها : مرتبة الكمال ، وهى مرتبة أولى العزائم ، وهى الصبر لله وبالله . فيكون فى صبره مبتغيًا وجه الله ، صابرًا به ، متبرئًا من حوله وقوته . فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها .

الثانية : أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا . فهو أخس المراتب ، وأردأ الخلق . وهو جدير بكل خذلان ، وبكل حرمان .

الثالثة : مرتبة من فيه صبر بالله . وهو مستعين متوكل على حوله وقوته . متبرىء من حوله هو وقوته . ولكن صبره ليس لله ؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد

الله الدينى منه فهذا ينال مطلوبه ، ويظفر به . ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبته شر العواقب .

وفى هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية . فإن صبرهم بالله لا لله ولا فى الله . ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم . وهم من جنس الملـــوك الظلمـــة ، فإن الحال كَالْمُلْك يُعطاه البر والفاجر ، والمؤمن ، والكافر .

الرابع : من فيه صبر لله ، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه والثقة به ، والاعتماد عليه . فهذا له عاقبة حميدة ، ولكنه ضعيف عاجز ، مخذول فى كثير من مطالبه ؛ لضعف نصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فنصيبه من الله : أقوى من نصيبه بالله . فهذا حال المؤمن الضعيف .

وصابر بالله ، لا لله : حال الفاجر القوى . وصابر لله وبالله : حال المؤمن القوى والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

فصابر لله وبالله عزيز حميد . ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول . ومن هو بالله لا لله قادر مذموم ومن هو لله لا بالله عاجز محمود .

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه فى هذا الباب . ويتبين فيه الخطأ من الصواب والله سبحانه وتعالى أعلم (١) .

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهذه عبادة خالصة مع الجانب الأخلاقى وهو الصبر ، وأقاموا الصلاة أى أدّها قائمة مستوية مستوفية للأركان والشروط والآداب ، والله سبحانه وتعالى لم يقل صلّوا ، وإنما قال : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهو تعبير يفيد أنهم يؤدونها مستكملة لحقائقها .

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وشأن القرآن دائمًا أن يقرن بين الصلاة والإنفاق ، حق الله تعالى وحق الناس ، وخصوصًا الضعفاء من عباده ،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ج ٢ / ١٦٨ – ١٧٠ .

الفقراء والمساكين فهؤلاء لهم حق ، وقد قرن القرآن بين الصلاة وبين الزكاة فى ثمانية وعشرين موضعا (١) ، وأحيانا يقرن بينهما بلون آخر كأن لا يذكر لفظ الزكاة مثل ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ [فاطر : ٢٩] . ومثل وصف المتقين فى أوائل سورة البقرة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة :٣] وفى أوائل سورة الأنفال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣] وهنا فى سورة الرعد نجد هذا المعنى الربانى فيقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ فهم يلحظون أنهم حينما يخرجون من أموالهم ما ينبغى أن يخرج فإنما يُخرجون مما رزقهم الله ، فالمال ليس مالهم فى الحقيقة ، وإنما هو مال الله عندهم ، وهم لا يخرجون هذا المال كله ، ولكنهم يخرجون بعضه ، فالله يطلب البعض لا الكلّ ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٧] وهو لا يسألكم أموالكم كلّها ، بل يسألكم بعضها : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ فلو سألكموها كلها وأحفاكم أى لم يبق لكم شيئًا ، هنالك تبخلوا ، ولكنه يريد البعض .

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ بحسب الأحوال فأحيانًا ينفقون سرًّا إذا كان السرّ أولى ، كأن يكون أبعد عن الرياء ، وخصوصًا فى صدقة النَّفل فهم يخرجونها سرًّا بعيدًا عن التظاهر ، وأحيانًا ينفقون علانية إذا كان الإنفاق فريضة ؛ حتى لا يتهمهم الناس بالتفريط فى الواجب ، وحيث يُتوقع أن يقلدهم

---

(١) فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) عدّها – أى الزكاة – فى اثنين وثلاثين موضعًا منها ستة وعشرون قرنت فيها الزكاة بالصلاة ، انظر ص ٣٣١ ، ٣٣٢ من المعجم كما قرنت بالمعنى – ومما رزقناهم ينفقون – فى سبعة مواضع هى ٣ بقرة ، ٣ أنفال ، ٢٢ رعد ، ٣١ إبراهيم ، ٣٥ حج ، ٢٩ فاطر ، ٣٨ شورى ، ولعل شيخنا عدّ مما عدّ المواضع التى تحدثت عن الصلاة والزكاة فى سياق واحد كما فى أوائل سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ – ٣] .

ويقتدى بهم غيرهم ، ويأمنون على أنفسهم الرياء ، فهنا تكون العلانية أفضل ، وهم أصحاب عقول وأولو ألباب يقدّرون أىّ المواقع تكون أولى بالسرّ وأيّها أولى بالعلانية ، وقد وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٤] ٠ ووصف الإسرار والإعلان فى الصدقات فقال : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة:٢٧١] ٠

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ يدفعون بالحسنة السيئة ، ولا يقابلون الإساءة بالإساءة ، بل يقابلون الإساءة بالإحسان ، إنهم أصحاب قلوب كبيرة ، فلا يريدون أن يقضوا حياتهم فى المخاصمة مع الناس ، والشجار مع الخلق ، فالعمر أقصر والحياة أثمن من أن يقضوها فى المشادة والملاحة مع الآخرين ، إنما تتسع صدورهم ؛ ليقابلوا المسيء بالإحسان إليه ، فهم يصلون من قطع ، ويبذلون لمن منع ، ويُعطون من حرم ، ويعفون عمن ظلم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، فهذا هو شأنهم كما وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] وإنه لشأن عظيم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

وكما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت : ٣٤ ، ٣٥] ٠ لا يستطيع أن يقف هذا الموقف ويقابل السيئة بالحسنة أو يدفعها بالتى هى أحسن إلا الذين صبروا ، وهذا يدل على أهمية الصبر فى هذه الأمور كلّها ٠

وهناك من يقول إن : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ تعنى أنهم يتبعون السيئة بالحسنة كما جاء فى حديث أبى ذر الشهير : « وأتبع السيئة الحسنة

تمحها »[1] ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] وإن كان الذى ينقدح فى النفس أن المعنى الأول هو المراد ؛ لأنه يبين علائقهم بالخلق جميعًا ، فهم أناس كبار ليسوا صغار النفوس ، ولا يعيشون فى الأمور التّافهة التى تستهلك الحياة بالقيل والقال ، والمعاداة مع الناس .

معنى عقبى الدار :

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الدَّار ، هى الدنيا ، وعقبى هذه الدّار هى الجنّة ، وكما يقول العلامة الزمخشرى :كأن الجنّة هى الأصل ، وكأن العقاب جاء تبعًا والثواب هو المراد أصلاً : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] وكما جاء فى سورة يونس : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٤] فكأن جزاء المؤمنين بالقسط وإثابتهم بالجنة هو الأصل ؛ لأن هذه هى العاقبة ، والله سبحانه وتعالى يريد للناس المثوبة ويريد لهم الحسنى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ فعقبى الدّار ، جنّات عدن يدخلونها ، وهى جنّات وليست جنّة واحدة ، وقد جاءت أمّ صحابى استشهد فى بدرٍ تسأل النبى ﷺ عن ابنها إن كان فى الجنّة صبرت واحتسبت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، فقال لها : هبلت يا أم حارثة ، إنها ليست جنة واحدة ، وإنما هى جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى[2] .فهى جنّات ، وجنّات عدن معناها : جنات

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر ولفظه « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » كما رواه عن معاذ بن جبل أيضًا ، ورواه الترمذى فى سننه فى كتاب البر والدارمى فى الرقاق .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق والجهاد والمغازى من صحيحه وتمامه : « عن أنس ابن مالك أن أمّ الربيع بنت البراء ، وهى أمّ حارثة بن سراقة أتت النبى ﷺ فقالت : يا نبى الله ألا تحدثنى عن حارثة – وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب – فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن=

للاستقرار والإقامة والخلود ، فعدن تعنى إقامة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ والله يكرمهم بأن يدخل معهم من يحبّون من الآباء وكلمة الآباء تعنى الأبوين من باب التغليب فيقال عن الأب والأم : أبوان ، وكلمة أزواج تشمل الذكور والإناث فالرجل تدخل معه زوجته الجنة كرامة له ، والمرأة الصالحة يدخل معها زوجها كرامة لها ، وأحيانًا تكون الزوجة شفيعة لزوجها ، وذرّياتهم حتى تكمل بهجتهم ويتم سرورهم حينما يلتئم الشمل بالجنّة ، فالإنسان حينما يكون فى سفر ويأتى بعد غيبة يتمنى أن يلتقى بأولاده وذريته ويعتبر ذلك يومًا من أيام السرور والسعادة ، فما باله بالجنة يلقى فيها الأحبة والذرية ؟ إنها نعمة عظيمة ، ولكن هذا لا يكون إلا بشرط أن يكونوا من الصالحين«ومن صلح » وهذا يدل على أن غير الصالحين لا يدخلون الجنة معهم ، فلو كانوا من أهل الكفر فإن الأنساب لا تنفعهم : ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ،يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[الممتحنة:٣] كما خاطب الله تعالي المشركين ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠١] فالكافر لا ينفعه نسب ، ولا ينفعه أب ولا زوج ولا ابن ، ولكن الأنساب تنفع مع أهل الإيمان ، فإذا مات أحدهم على الإيمان فإن الله سبحانه وتعالى ينفعه بأهله الآخرين ، حتى لو كان أقلّ درجة فإنه يُعلى له درجته ، فيرفعه من جيد أو من مقبول إلى ممتاز ببركة صاحب الامتياز من أهله كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّن شَىْءٍ ﴾[الطور : ٢١] فيلحق بهم ذريتهم دون أن ينقص من أعمالهم ، فالأدنى يرتفع إلى الأعلى دون أن ينقص الأعلى شيئًا .

وإذن فأولو الألباب يدخلون الجنة وتدخل عليهم الملائكة من كل باب ، وهذا يدل على أن أهل الجنة ليسوا هم البُلْه كما يذكر بعض الناس وكما جاء فى

= كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال : يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » ورواه أيضًا الإمام أحمد فى مسنده .

بعض الأحاديث التى لم تصح : أن أكثر أهل الجنة البُلْه [1] فقد رأينا أن أولى الألباب العقلاء يدخلون الجنّة ، وليس البُلهاء ولا العبطاء ولا المغفلين ولا المجاذيب ، وقد كان الصحابة من العقلاء أولى الألباب ، وكان الرسل كذلك فى قمة العقل ، حتى إن من الصفات الأساسية لهم كما يذكر العلماء : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

صلة الأخلاق بالعقل :

وأريد أن أذكر شيئًا هنا عن العقل والخُلُق ، فالقرآن قد ذكر مجموعة من الأخلاق لأولى الألباب ، وهذا يدل على أن هناك علاقة تلازم بين العقل والخلق ، فالعاقل لابد أن يكون ذا خلق حسن ، بحيث إذا رأيت إنسانًا ذا خلق ردىء فاعلم أنه ليس بعاقل ، أو أنه عطّل عقله ، فلو كان عاقلاً حقًّا لتجلى ذلك فى خلقه وسلوكه ؛ لأن الإنسان العاقل هو الذى يوازن بين المبنى والمعنى ، وبين العاجل والآجل ، وبين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية ، وبين الشهوة والواجب ، فيرجّح ما ينبغى ترجيحه ويستعمل عقله ، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى ردّ على المشركين حينما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون وسرّى عنه بقوله : ﴿ نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١ : ٤] ويستحيل أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا ، فالمجنون تصرفاته غير متزنة ، يعلو ويهبط ، ويذهب يمنة ويذهب يسرة ، ويفعل الخير أحيانًا والشر أحيانًا أخرى ، ويقول صوابًا أحيانًا ويقول خطأ أحيانًا أخرى ، فلا قرار له ولا استقامة له على شىء ، أما صاحب الخلق العظيم فلابد أن يكون فى قمة العقل .

---

(١) حديث « أكثر أهل الجنّة البُلْه » رواه البيهقى فى الشعب والبزار والديلمى فى مسنديهما ، والخلعى فى فوائده وكلهم من حديث سلامة بن روح بن خالد عن أنس بن مالك ، وسلامة فيه لين كما قال السخاوى في المقاصد الحسنة ح رقم ١٤٤ وأنكره بعض العلماء واستغربه بعضهم وأوّله بعضهم كالأوزاعى على أن الأبله هو الأعمي عن الشر وغير ذلك ، انظر كشف الخفاء للعجلونى ح رقم ٤٩٥ .

﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ من كل باب دلّ على كثرة الأبواب حتى لا يتعطل داخل أو خارج ، إذ لو كان بابًا واحدًا لانتظر بعضهم إلى أن يخرج بعض من كثرة الملائكة الذين يحيُّون هؤلاء العقلاء من المؤمنين ، والله قد كثّر عليهم الأبواب ، لتتسع للداخلين ويكثر السلام والتحية لهؤلاء تحييهم ملائكة الله عزّ وجلّ : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ وهنا نجد أهمية الصبر مرة أخرى ، دليل على أن الصبر له مدخل فى كل ما ذكر ، فالإنسان لا يستطيع أن يؤدى الصلاة إلا بالصبر ، والعبادة تحتاج إلى صبر قال تعالى : ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] ، ولا يستطيع الإنسان أن يدرأ السيئة بالحسنة إلا بالصبر ، ولا يستطيع أن ينفق مما رزقه الله إلا بالصبر ، ولا يستطيع أن يوفى بعهد الله إلا بالصبر ، وقد جاء فى سورة الإنسان ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] .

﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ تسليمات تأتيهم من كل ناحية : ﴿ لاَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦] ولذلك قيل : إن الجنة هى دار السلام ؛ لكثرة ما فيها من السلام ؛ ولأنها دار الأمان فليس فيها خوف قط ، وهى السلامة من كل شىء ، وما ذلك إلا لأنها دار الله ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٢٧] ومن أسمائه سبحانه وتعالى السلام،والمسلمون يسمون أبناءهم عبد السلام،وقد روى الإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : أن أول زمرة تدخل الجنة ثلة من فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يجد لها قضاء (١) ، فليسوا

---

(١) الحديث طويل رواه الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده ج ٢ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، كما رواه غيره وانظر ابن كثير الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم ص ٥١٠ ، وهو من حديث « عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرين الذين تُسدّ بهم الثغور وتتّقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا =

من المشاهير الذين يشار إليهم بالبنان ، وتفتح لهم الأبواب ، وتقضى لهم الحاجات ، ولكنهم أناس مغمـــورون كما فى الحديـــث « رب أشـعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » [1] فهؤلاء بأمر الله تعالى ملائكته أن يذهبوا فيحيوهم فيقولون : يا ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك تأمرنا أن نذهب إلى هؤلاء فنحييهم ونسلم عليهم فيقول : هؤلاء عباد لى كانوا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا تتقى بهم المكاره وتسدّ بهم الثغور ويموت أحدهم وحاجته فى صدره اذهبوا إليهم ائتوهم فحيوهم ، فتذهب إليهم الملائكة فيقولون لهم (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) [2] .

* * *

= يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيّوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا وتُسدّ بهم الثغور وتُتَّقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

(١) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر وكتاب الجنة عن أبى هريرة بلفظ : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقســم على الله لأبره » كما رواه الإمام أحمـد ، وزاد الحاكم وأبو نعيم : « تنبو عنه أعين الناس » ، والبزار عن ابن مسعود وفيه « رب ذى طمرين .. » ، وللشيخين روايات قريبة من هذا وكذا لابن ماجة وغيرهم ، والترمذى فى كتاب المناقب ،وانظر كشف الخفاء للعجلونى حديث رقم ١٣٦٤ .

(٢) بقية حديث الإمام أحمد الطويل الذى تقدم الكلام عنه .

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ من بَعْدِ ميثَاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ به أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ [الرعد : ٢٥ – ٢٩] .

صورة معتمة مقابل الصورة المشرقة :

أسلوب القرآن أبداً أن يذكر الصورة المشرقة الوضيئة لمن يحبهم الله تبارك وتعالى من عباده ، ثم يذكر بعدها الصورة المعتمة المظلمة لمن يبغضهم الله تبارك وتعالى من خلقه ، وهو ما نقول عنه المقابلة ، فهذا أسلوب القرآن الكريم وخصوصاً في هذه السورة التي يتضح فيها التقابل من أولها كما سبق الكلام عن ذلك وكما بينا من قبل ، فلا عجب ، بعد أن ذكر الله تعالي أولى الألباب وأوصاف أولى الألباب الذين يعلمون أنما أنزل إلى محمد ﷺ من ربه هو الحق ، أن يذكر عُمى البصائر فقد قال بداية : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ولا عجب أن يحدثنا عن هؤلاء العمى الذين لا ألباب لهم ولا عقول عندهم ولا يتذكرون ولا يعون .

والآية التي معنا تتحدث عن أوصاف هؤلاء يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ من بَعْدِ ميثَاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ به أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِرُونَ فِي الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ فهذه ثلاثة أوصاف أساسية .

نقض العهد والميثاق :

أولها : نقض العهد من بعد توثيقه وقبوله وإظهار الرضى به ، فينقضون عهد الله الذي يشمل عهده إلى آدم وأبنائه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [يس : ٦٠] وما ترتب على ذلك من عهود تتمثل في

الأوامر والنواهى ، وتتمثل في عهود الناس بعضهم مع بعض ، فكلّها عهد الله عز وجلّ ، وقد أمر الله تعالى أن توفى وألا تنقض : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل : ٩١ ، ٩٢] والنقض أصله حلّ الشيء المربوط ، وفك الشيء المتماسك مثل : نقض الغزل أو نقض الحبل أو نقض البناء ، أى هدمه بعد تماسكه ، فهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآيات ينقضون العهد بعد توثيقه وتأكيده كما حكى الله تعالى عن اليهود الذين : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٦] فهؤلاء لا يبالون بعهد ولا يبالون بميثاق ، فأول أوصاف هؤلاء الذين لهم اللعنة ولهم سوء الدار : أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وإذا كان أول أوصاف أولى الألباب أنهم ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ فهؤلاء على العكس منهم لا عهد لهم ولا ميثاق ولا كلمة ولا يحترمون عهداً بينهم وبين الله ولا بينهم وبين أحد وهذا هو أساس كل سوء ، فالإنسان يؤخذ من ارتباطه والتزامه ، وهؤلاء لا يحترمون التزاماً ولا ارتباطاً لا بينهم وبين خالقهم ولا بينهم وبين الخلق .

قطع ما أمر الله بوصله :

وثانى الأوصاف التى تحدثت عنها الآية هو قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ على عكس ما وصف الله تعالى به أولى الألباب الذين : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ بهذا العموم والإجمال والإطلاق ، فكل ما أمر الله به أن يوصل من علاقات وارتباطات بين الناس بعضهم وبعض من رحم ومصاهرة ونسب وجوار وصحبة وزمالة ، ومن رباط عام ، وحتى رباط العبودية ، رباط المخلوقية أنهم مخلوقون ، فكل المخلوقات ينبغى أن يراعوا حق الله فى هذا الرباط والعهد ، وهذا الوصل هو شأن أولى الألباب .

أما هؤلاء فهم ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ فلا يبرون أبًا ولا أمًا ، ولا يصلون رحماً ، ولا يؤتون ذوى القربى ، ولا يرعون جواراً ، ولا يؤدون للصحبة حقها ، ولا يرحمون ضعيفاً ، ولا يؤدّون شيئاً لمسكين ، وقد قال

الله سبحانه وتعـــالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُـــمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَـــهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] .

الإفساد فى الأرض :

وثالث الأوصاف هو قول الله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ وكأن القرآن الكريم قد استغنى بهذا الوصف ؛ ليقابل به كل الأوصاف الأخرى عند أولى الألباب الذين ﴿ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فالفساد فى الأرض يعتبر إفساداً للحياة يقابل هـــذا كله وقوله : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ هذه كلمة عامة ، وعلى ذلك فترك الصلاة يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك الإنفاق مما رزق الله يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك الصبر ابتغاء وجه الله يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك خشية الله وعدم الخوف من سوء الحساب يعتبر إفساداً فى الأرض .

وإذن فالفساد فى الأرض هو الابتعاد عن طاعة الله تعالى واقتراف ما نهى الله عنه ، وهذا يدلنا على أن صلاح الأرض إنما يكون بالقيام بحق الله تبارك وتعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وليس صلاح الأرض بالزراعة والصناعة والاحتراف والعمارة المختلفة وإن كانت هذه مما تصلح به ولابد للأرض منه ، ولذلك اعتبرها فقهاء المسلمين من فروض الكفايات ، ولكن الأرض لا تصلح به وحده ، فإذا زرع الناس وصنعوا وعمّروا وأنعشوا الحياة ، كما نرى فى الحضارة المعاصرة ، ولم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا الزكاة ، ولم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر ، فإن الأرض لا تصلح .

والقرآن أراد من الناس أن يصلحوا فى الأرض ولا يفسدوها ، ولذلك قال : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] وكم قرأنا لغير نبى من الأنبياء والرسل السابقين يدعو قومه ألا يفسدوا فى الأرض ، كما قال سيدنا شعيب : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[هود:٨٥ ، الشعراء:١٨٣]

وكان قومه قد أفسدوا الحياة الاقتصادية بالبخس والتطفيف وغير ذلك ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٦] وسيدنا موسى يقول لبنى إسرائيل : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] فالمطلوب إصلاح الأرض وعدم إفسادها .

وإصلاح الأرض هدف من أهداف الرسالات كلّها ، أن تصلح الأرض ولا تفسد ، وأن تعمر ولا تخرب ، ولكن إصلاح الأرض وعمرانها لا يكون فقط بالنواحى المادية ، وإنما يكون بالنواحى المادية وبالنواحى المعنوية ، فتعمر الأرض وتصلح بالأخلاق وبالقيم وبالإيمان ، وبالتوحيد ، وبالعقائد السليمة وبالعبادات الخالصة لله تبارك وتعالى ، ومن أجل ذلك نرى من أوصاف القرآن لهؤلاء العمى أنهم يفسدون فى الأرض .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وفى سورة البقرة قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ عاقبة لهؤلاء : ﴿ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[البقرة: ٢٦ ، ٢٧] وهذه الخسارة بينتها آية الرعد التى معنا : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ واللعنة هى الطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى ، وهذه شرّ عقوبة أن يطرد الإنسان من رحمة الله التى وسعت كل شىء وألا تسعه هذه الرحمة ، فهذا يعنى أنه ارتكب ما يحجّر عليه هذا الواسع ويضيقه فإنه أساء وأفسد ، واللعنة إذا أطلقت فهى تعنى لعنة الله عزّ وجلّ ، ولكن لا مانع أيضاً أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون كما قال عزّ وجلّ : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[البقرة:١٦١] فيصبحوا مصبًّا للعنة يلعنهم كل لاعن من أهل السموات ومن أهل الأرض ..

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وكأن القرآن هنا إذ قال : ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ولم يقل : « عَلَيْهِمْ لَعْنَة » يتهكم من هؤلاء ، فماذا ينتظرون وماذا يريدون ؟! وما حظهم وما نصيبهم ؟! ، ليس لهم إلا اللعنة كما قال الله عزّ

وجلّ : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١ ، التوبة : ٣٤ ، الانشقاق : ٢٤] بنوع من السخرية والتهكم ، وإذا كان فى أولى الألباب قد قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وهى الجنة ، فماذا لهؤلاء ؟ ليس لهم إلا اللعنة وسوء الدّار ، ﴿ سُوءُ الدَّارِ ﴾ هى جهنّم وعذابها والعياذ بالله .

سعة الرزق لا تدل بالضرورة على رضا الله :

وقد يقال : إن هؤلاء عندهم أموال ولهم ثروات ويعيشون فى بحبوحة من العيش والنعيم والرفاهية ، وقد يظن بعض النّاس أن هذا من دلائل الرضى عنهم ، وهذا وهم عرض للكثيرين ، ولكن القرآن يردّ هذا الأمر ، فمسألة الرزق هذه لا تدل على رضى ولا تدل على سخط ،وإنما الرزق نوع من الابتلاء كما قال الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وكما قال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾[الفجر : ١٥ ، ١٦] وليس التنعيم للأول وإعطاؤه المال تكريماً ، وليس التضييق على الآخر وحرمانه إهانة ، ومن هنا قال الله تعالى بعد أن ذكر وصف هؤلاء المفسدين الملعونين : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ..

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يبسط أى يوسع،ويقدر أى يضيق ، فهو يوسّع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، والتوسيع والتضييق ، أو البسط والقدر خاضع لمشيئة الله تبارك وتعالى ، ومشيئته مرتبطة بحكمته ، فلله تعالى حكمة فى أن يوسع على هذا وأن يضيق على هذا ، وقد يكون هذا نوعاً من المكافأة فى الدنيا ، فبعض الناس يعطيهم الله ما يستحقونه فى الدنيا ؛ نتيجة كدحهم وسعيهم كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾[هود : ١٥] ، فالذى يحسن الزراعة ويأتى بالبذرة الصالحة ، ويبذرها فى الأرض الصالحة ، ويتعهدها بالسقى والرعاية ، ويستخدم فى ذلك أفضل الوسائل والآلات ، لابد أن تؤتيه الأرض الثمرة حسب سنن الله عزّ وجلّ وقوانينه فى هذه الحياة الدنيا ، ومع ذلك

قال عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٦] فالتوسعة تكون بناء على هذه السنن،وقد تكون ابتلاء لهذا الإنسان من الله واستدراجًا منه:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ ، القلم : ٤٤] ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، كما قد تكون ابتلاء للمؤمنين : ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] لمن تغره مظاهر الدنيا فيضعف ويفتتن ولمن لا تغرّه الدنيا فلا ينقلب على عقبيه ،ولا يهمه إن كان عنده كنوز قارون أو كان عنده ملك هارون الرشيد فهو لا يبالى بهذا كلّه .

الفرح المذموم والفرح المحمود :

﴿ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهؤلاء الذين بسط الله لهم الرزق فرحوا بالحياة الدنيا ، بنصيبهم وما أوتوا من رزق ومن سعة فى هذه الحياة الدنيا ، والفرح فى ذاته ليس مذمومًا ، وإنما يذم إذا أدّى إلى الأشر والبطر فهذا هو الفرح الذى نَهَى قومُ قارون قارون عنه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] فالمقصود بالفرح هنا هو الفرح المؤدى إلى البطر والكفر بنعمة الله عزّ وجلّ والغرور ، وهذا ما لوحظ فى قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ﴾ [القصص : ٧٨] فهو فرح بغير الحق كما قال القرآن الكريم : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : ٧٥] أما الفرح بفضل الله تبارك وتعالى فهو مطلوب: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨]﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *بِنَصْرِ اللهِ ﴾ [الروم : ٤ ،٥] .

لا مانع من الفرح بدنيا إذا جاءت للإنسان من حلال وابتعد فيها عن الحرام ، ولا مانع كذلك من الفرح الفطرى كما جاء فى الحديث بالنسبة لرمضان : « للصائم فرحتان يفرحهما ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربّه » ،

أو « إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربّه فرح بصومه » [1] فالفطر فرح فطرى بما أحلّ الله له مما كان محرمًا عليه ، والشيء الذى كان ممنوعًا أصبح مباحًا له ، فهو يفرح ، يشرب على الظمأ ويأكل على الجوع ويحمد الله ويقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله » [2]،وليس هذا الفرح الطبيعى مذمومًا ، إنما المذموم هو الفرح بالدنيا التى تلهى عن الله عزّ وجلّ وتغرّ الإنسان وتشغله عما ينبغى .

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ والحياة الدنيا هى الحياة التى يحياها النّاس مقابل الحياة الآخرة ، والدنيا مؤنث أدنى ، والأدنى يقابل بالأعلى ، أو يقابل بالخير ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١] فالأدنى هو الأحقر والأرذل والمقابل له هو الأعلى والأفضل ، وأحيانًا يكون الأدنى بمعنى الأقرب ويقابله الأبعد والأقصى ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ [الأنفال : ٤٢] ، فالحياة الدنيا هى الأقرب ؛ لأنها قبل الآخرة ، أو هى الأدنى ؛ لأنها أقل قيمة من الآخرة ، فهى الحياة الدنيا ، والأخرى هى الحياة العليا ، كما قال بعض السلف : « لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى لفضل العاقل الخزف الباقى على الذهب الفانى ، فكيف والدنيا لا تساوى خزفًا ، والآخرة أكثر من ذهب » ، ومما يحقر هذه الدنيا أنها فانية ، فكيف وهي نفسها لا تساوى شيئًا ، ولهذا فالله تعالى يقول هنا : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ .

---

(١) جزء من الحديث الطويل المتفق عليه عند البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه وأوله : « كل عمل ابن آدم له .. » وفى رواية البخارى : « للصائم فرحتان بفرحهما إذا أفطر فرح وإذا لقى ربه فرح بصومه » ، وفى رواية مسلم : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » . وروى هذا الحديث أيضًا عدا البخارى فى الصوم ٩ وفى التوحيد ص ٣٥ ، وعدا مسلم فى الصيام ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، الإمام أحمد فى مسنده ، وابن ماجة ،والدارمى والنسائى بألفاظ مختلفة .

(٢) حديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصوم ص ٢٢ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، كما رواه النسائى فى سننه أيضًا من حديث ابن عمر .

قيمة الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ المتاع هو المنفعة القليلة أو الشيء القليل ، عجالة الراكب أو زاد المسافر كما عبّر بعض المفسرين ، ما يزود به المسافر وهو على جناح السفر حينما يركب دابته فيحمل شيئًا من المتاع ، تمرات يأكلها ، أقراص من الخبز ، شربة من سويق يشربها ، فالدنيا بالنسبة للآخرة متاع وهذا هو المتاع ، ولذا يقول العلماء : إن حرف الـ « فى » عند قوله : ﴿ فِى الآخِرَةِ ﴾ هو للمقايسة بين شيئين ، مفضول سابق ، وفاضل لاحق ، كما يقال : ما ذنبك فى رحمة الله إلا كقطرة فى بحر ، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ وكلمة متاع هنا نكرة ، وعلماء البلاغة يقولون : إن التنكير يفيد التقليل ، والتحقير ، فهو متاع حقير قليل كما صرحت بذلك بعض الآيات ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] ، ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨] وهذا التصريح مفهوم ضمنا فى آية الرعد التي معنا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع » (١) فلا تستحق الدنيا إذن – وهذا شأنها – أن يحرص الناس عليها ولا أن يتهارشوا من أجلها ، ولا أن يعتبروا الذين ملكوا الدنيا هم السادة والقادة وأن الآخرين هم الأتباع لهم ، ولا ينبغى أن تكون هى الميزان بالنسبة لتقويم الناس كما قال من قال : « وقيمة رب الألف ألف وزد تزد » وكذلك قيمة رب الدرهم – على هذا المقياس – درهم فقيمة الإنسان ما معه ، ولذلك قال مشركو مكة حينما بعث إليهم النبى ﷺ مما حكاه القرآن : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] من مكة أو من الطائف مثل عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة من مكة أو عروة بن مسعود الثقفى من الطائف من أصحاب الأموال وأصحاب الجاه ، فهذا مقياسهم

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث المستورد بن شدّاد أخى بنى فهر ، فى كتاب الجنّة ص ٥٥ ، ورواه أيضًا الترمذى فى الزهد ص ١٥ ، وابن ماجة فى الزهد ص ٣ ، كما رواه الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده .

وقد أجابهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] فالله قد فاوت بين الناس حتى تنتظم الحياة ، وسخر بعضهم لبعض ليس قهراً ولا إذلالا ، ولكن تسخير نظام وإدارة﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف: ٣٢] .

تكرار اقتراح الآيات الخارقة :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ وكأن الذين كفروا هنا – وهم أنفسهم المذكورون قبل قليل بالأوصاف الشائنة – يقترحون الآيات ويطلبون الخوارق ، ولم يكفهم ما أنزل الله على محمد ﷺ من الحق ، فهم العمى الذين لم يعلموا أنما أنزل إليه من ربه هو الحق ، وبدل أن يستجيبوا لأعظم آية وأرفع معجزة ،وهي القرآن الكريم الآية الباقية الخالدة ، طفقوا يطلبون آيات شتى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ : ٩٣] وهذه المطالب لا تدل إلا على التعنت ، وتلك الآيات بعضها في الأرض ، ولكن لأنهم يطلبونها بخارقة سماوية اعتبرت نازلة من السماء .

والآية : ﴿ .. لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. ﴾ تكرار لما ذكر في أوائل السورة : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ والسورة تدور حول هذا المحور ، محور الرسالة المحمدية وثبوت هذه الرسالة وحقيتها ، وحقّية ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب ، وهذا واضح من أول آية في السورة : ﴿ الٓمٓر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن هؤلاء لم يقنعهم هذا الكتاب فهم يطلبون آيات ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقد ذكر القرآن : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ ليسجل عليهم الكفر ويبين أن الذي دعاهم إلى مثل هذه الطلبات

المتعنتة إنما هو الكفر والجحود ، وقد تكررت ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى هذه السورة ثلاث مرّات تلك التى معنا والتى فى أول السورة ، وفى آخرها : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] .

والقرآن هنا يحكى لنا قول الذين كفروا ، ولا يتوجس من ذلك ولا يبالى أن يعرض علينا أقوال الكافرين ، فهو مملوء بأقوال الكافرين والمعارضين للنبوة من المشركين بالله ، والجاحدين لرسالة رسول الله ﷺ ، وهذا يعلمنا أن نواجه الباطل بصراحة ولا نخشاه ، ولا ندفن رؤوسنا فى الرمال ، فكم ذكر من أقوال المشركين واليهود والنصارى والدهريين والمكذبين بالنبوة وردّ على هذا كله .

﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الضمير فى عليه يعود على محمد ﷺ وإن لم يسبق ذكره ولكنه مفهوم من المقام ، و ﴿ آيَةٌ ﴾ خارقة من الخوارق الحسية كالتى أنزلت على موسى وعيسى وصالح وغيرهم من الأنبياء ، نشهدها بأعيننا ، ونلمسها بأيدينا ، هكذا اقترحوا وهكذا تعنتوا وطلبوا ، ولكن سنَّة الله جرت على ألاّ يجاب هؤلاء إلى طلبهم ، فلو أجابهم ما آمنوا ، والقرآن يقول : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] ويقول : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] فالآيات لن تجدى مع هؤلاء وكل ما فى الأمر أنهم متعنتون أمام رسول الله ﷺ ولو أنصفوا لكان القرآن كافيًا لهم وهو أعظم الآيات ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] والقرآن وحده كاف فى إقناع أهل العقل والبصيرة أولى الألباب .

﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ هذا الرّد يعنى أن هؤلاء ضلاّل غلبت عليهم الضلالة ، واستحبوا العمى على الهدى ، فلم يروا

النور أمام أعينهم وهو واضح ساطع ، ﴿ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ وبيان ذلك هناك فى سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[البقرة:٢٦] فما أضلهم إلا لأنهم فسقوا عن أمره والله يضل من يشاء ممن كان على شاكلة هؤلاء الذين يرون الحق ناصعًا ولا يؤمنون به ، تعنتا أو جحودًا أو استحبابًا للدنيا أو ﴿ حَسَدًا مِّن عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[البقرة: ١٠٩] أو بغيًا وعلوًا أو غير ذلك ..

من الذى يشاء الضلالة والهداية ؟ :

والضمير فى قوله : ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ عائد على الله سبحانه وتعالى خلافًا لما يقوله بعض المحْدَثين من أن الضمير في يشاء : عائد على « من » والمعنى أن من يشاء الضلالة يضلّه الله ، وكذلك من يشاء الهدى يهديه الله : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل : ٩٣ ، فاطر : ٨] فالمشيئة على قولهم – تكون هنا للإنسان نفسه ، والواقع أن هذا يخالف المتبادر من هذه اللفظة التى ذكرت فى أمور كثيرة كما فى قوله فى السورة ذاتها:﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فيشاء هنا هى لله سبحانه وتعالى الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، وكما فى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] أى لمن يشاء هو ، وكما فى قوله : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] وهنا جاءت بالخطاب ، وكما فى قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فهذا كله يدلّ على أن المقصود بالذى يشاء هو : الله سبحانه وتعالى وليس الإنسان ، وصاحب هذا التفسير – من يشاء هو الإنسان – يريد أن يردّ على الجبريين وغيرهم ليقول: إن القرآن يجعل مصير الإنسان بيده ، وأن الإنسان هو الذى يصنع مستقبله ، وهو الذى يمكن أن يهدى نفسه أو يضلّها ، ولكن تقرير هذه الحقيقة لا يحتاج إلى التعسف فى التأويل ؛ لأن القرآن يردّ على الجبريين فى مئات الآيات إن لم يكن فى آلافها ، فالإنسان هو المسئول عن مصيره ﴿ مَن

اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] وقد تكلمنا قبل قليل عن مصير أولى الألباب الذين كانت نتيجة سعيهم عقبى الدّار ، جنّات عدن يدخلونها ، أما الآخرون فلهم اللعنة ولهم سوء الدّار ، فالنتائج مرتبة على المقدمات ، والثواب والعقاب مترتب على الحسنات والسيئات ، لذا فلا يحتاج الأمرلأن نتعسف فى تفسير القرآن .

لمن يكون الإضلال والهداية ؟ :

﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْه مَنْ أَنَابَ ﴾ وكما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِه إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] قال هنا : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْه مَنْ أَنَابَ ﴾ أى أن الله يهدى من كان عنده استعداد للهداية وقابلية لها ، والله قد خلق القلوب مستعدة للهداية ولم يخلقها غلفًا ، وإنما سعى الإنسان وعمله هو الذى يودى به ، والله تعالى يقول : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٥٥] فالقلوب مستعدة لقبول الهداية والتوحيد ، والإنسان هو الذى يدسّى نفسه أو يزكّيها : ﴿ وَنَفْسٍ ، وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ : ١٠] .

فالهداية متاحة للجميع ،وبابها مفتوح للجميع ، ومن يخطو خطوة واحدة فإن الله سبحانه وتعالى يقابله بأن يفتح له الأبواب « من أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن تقرّب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا » (١) فعلى قدر الاستعداد تكون الهداية ، وهؤلاء عندهم استعداد للإنابة ، فهداهم الله عزّ وجلّ كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا

---

(١) إشارة إلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « أنا عند ظنّ عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى .. » الذى رواه الشيخان ، البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم فى الذكر والدعاء وغيرها من الأبواب ، والذى رواه أيضًا الترمذى فى الدعاء ص ١٣١ ، وابن ماجة فى الأدب ص ٥٨ والإمام أحمد فى مواضع كثيرة من مسنده .

أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم منْ بَيْننَا ، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] بل الله أعلم بالشاكرين ، ولذا منَّ عليهم هناك إذن استعدادات هيأ الله الإنسان بها ، وفى الحديث : « كلّ مولود يولد على الفطرة »(١) .

هداية البيان وهداية التوفيق :

والهداية هدايتان : هداية مبذولة للجميع ، وهى هداية البيان والدّلالة ، وهديته الطريق يعنى دللته عليه ، والعلماء والدّعاة هداة ، ومعنى هداة : أنهم يبينون للناس المنهج والطريق المستقيم ويدلّونهم عليه ..وهداية موصلة إلى الحق وإلى اتباع طريقه والتوفيق إليه ، وهذه الهداية لا تكون إلاَّ لله سبحانه وتعالى ، والأنبياء يهدون بمعنى أنهم يدلون الناس على الطريق ، والله يهدى أى يدّل أيضًا على الطريق كما قال ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ولكن بعض الناس يدلّهم الله ويبين لهم فلا يستجيبون كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[فصلت : ١٧] فالهداية هنا بمعنى البيان والدلالة ، وقد أرشدهم الله إلى الطريق المستقيم وعرّفهم الحق من الباطل ، ومع هذا استحبوا العمى على الهدى .. أما الهداية الأخرى فتعنى التوفيق إلى الإيمان والطاعة كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] فهى هنا بمعنى التوفيق ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] أى ليس عليك توفيقهم إلى الإيمان وإلى الطاعة : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

عليك الدعوة وعلينا التوفيق ، فقوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ هو من هذا الباب فى الهداية أى يوفّق إليه ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ وأناب أى رجع ، فهناك من شرد عن الله وهناك من رجع إلى الله ، من عرف الحق فرجع إليه ، والإنابة مطلوبة من الجميع ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : ٥٤] وكما قال تعالى على لسان شعيب : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨ ، الشورى : ١٠] ، وكما قال أيضًا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى

---

(١) تقدم الكلام عنه .

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم : ٣٠ ، ٣١] .

لمن تكون هداية الله ؟ :

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ من أناب بقلبه إلى الله ، ومن تحرّى الهدى وطلبه ، هداه الله عزّ وجلّ ، فالله قد أتاح فرصة الاهتداء لكل المكلفين ، وباب الهداية مفتوح على مصراعيه ، فمن طلب الهدى وجده ، ومن أعرض عنه فلن يجده ، كما تقول : من قبل هديتي أهديت له ، ومن رغب عنى لم أرغب فيه ، ومن أعرض عنى لم أقبل عليه ، فالله سبحانه وتعالى يمنح هدايته لمن تعرض لها ، أما من أغلق عقله وقلبه وجعل بينه وبين الهداية حجابًا وحجابًا كما قال المعاندون لرسول الله ﷺ : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] فكيف يهتدى هؤلاء ؟! لا يمكن أن يهتدوا ؛ لأن الله يهدى إليه من أناب .

﴿ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ بعض المفسرين قالوا : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى الحق وبعضهم قال : إلى الإسلام ، ولم يذكر الحق هنا ولا الإسلام ، وإنما أخذوه من المقام ،ولكنّ الظاهر أن ﴿ إِلَيْهِ ﴾ هنا ترجع إلى الله سبحانه وتعالى ، فالله يهدى إليه أى إلى صراطه ومنهجه ودينه من أناب إليه ، وفى آيات أخرى ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، والإنابة هى الرجوع مرة بعد مرة ، فمن رجع إلى الله وأناب المرّة بعد المرّة والكرّة بعد الكرّة ولم يشرد من ربه عزّ وجلَّ بل يأوى إليه دائمًا ، يستحق الهداية ، ومن ذلك صفة المنيب : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ : ٩] ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة ق : ٨ ، ٣٣] أى الذى يرجع مرة بعد مرة .

من هم الذين آمنوا ؟ :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ﴾ هذا وصف لمن أناب ، كأن

سائلاً سأل من هذا المنيب ؟ أو ما هذا الصنف ؟ ومن هم أهل الإنابة ؟ فكان الجواب : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ ولم يذكر هنا المؤمن به ، فبماذا آمنوا ؟ لأن هذا الاسم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أصبح علماً على صنف من الناس تميّز عن غيره ، وأصبح معروفاً معلوماً بغاياته الواضحة ، ومنهجه المحدد ، وطريقه المستقيم ، تلك الفئة أصبحت علماً ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ومقابلهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وفي الآيات التي مرت بنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لم يذكر لنا المكفور به أيضاً ، أكفروا بالله ؟ أم كفروا بملائكته ؟ أم كفروا بكتبه ؟ أم برسله ؟ أم باليوم الآخر ؟ ؛ لأن هذه الفئة أصبحت معروفة أيضاً تتميّز بالكفر والجحود بغضّ النظر عن الشيء الذي كفروا به ، وأصبح الكفر علماً مميزاً لهم .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ظهرت هذه الفئة بظهور الإسلام ، وتحقق لهم وصف الإيمان بغض النظر عما آمنوا به ما هو ؟ ، ولذا تكررت هذه الكلمة في القرآن الكريم كلّه نحو مائتين وستين مرة ، وقد يعطف عليها أحياناً ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (١) ، وأحياناً لا يعطف عليها وهذا في أكثر من مائتي موضع ، والإيمان هنا يتضمن العمل ، ولا داعي لأن ندخل فيما دخل فيه المتكلمون من مجادلات حول الإيمان وعلاقته بالعمل ، وهل العمل جزء من الإيمان أو الإيمان شرط للعمل ؟ أو العمل مكمل للإيمان ؟ لا داعي لذلك ؛ لأن

---

(١) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (عبد الباقي) وغيره عدّها أي ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في (٢٤٠) مائتين وأربعون موضعاً مقترنة هكذا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أو نحوها بإضافة حرف جر وغيره وحكاية عن الذين آمنوا برسالة الإسلام وبالله وبرسوله وحكاية أيضاً في بعض المواضع عن الأنبياء السابقين ، وحكاية عن الذين كفروا مرة واحدة وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

ووردت آمنوا منفردة في سبعة عشر موضعاً فيكون المجموع مائتين وثمانية وخمسين موضعاً (٢٥٨) والله أعلم .. انظر المعجم المفهرس لزلفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقي) من ص ٨٢ إلى ص ٨٦ .

واقترنت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بـ ﴿ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في أكثر من خمسين موضعاً .

الإيمان القرآنى يتضمن العمل ، فلا إيمان بغير عمل ، ومن هنا نجد أن القرآن حينما يتحدث عن المؤمنين يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢ : ٤] ويقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ : ٥] ويقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وإذن فالإيمان القرآنى يتضمن العمـــل ، والقرآن يتجسد فى أخلاق وأعمال ، فإذا قال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى إيمانًا يثمر عملاً صالحًا ، وخلقًا فاضلاً ، وعلمًا نافعًا ، وينشىء واقعًا فى حياة صاحبه ، فهذا هو الإيمان الحق .

اطمئنان القلوب بذكر الله :

﴿ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ﴾ وأبرز ما يميّز الذين آمنوا : أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله ، ونلاحظ تغيير الصيغة من الماضى فى ﴿ آمَنُوا ﴾ إلى المضارع فى ﴿ وتَطْمَئِنُّ ﴾ بدلاً من أن يقول واطمأنت ؛ ليفيد التجدد أي إن هذا الاطمئنان يتجدد دائمًا وباستمرار معهم .

والإنسان ليس هو هذا الجسد وهذا الغلاف ، وإنما حقيقة الإنسان هى تلك الجوهرة الربّانية واللّطيفة الروحانية التى تسكن بناء الجسد والتى جاء فيها الحديث : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب » (١) القلب ذلك الكائن الواعى الداخلى ، والإنسان يسعد أو يشقى ، ويصلح أو يفسد بهذا القلب ، ولذلك كان هؤلاء

---

(١) فقرة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه المشهور الذى أوله : « الحلال بيّن والحرام بيّن » وآخره : « ألا وهى القلب » ، والذى رواه البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ، ورواه مسلم فى المساقاة ص ١٠٧ ، وابن ماجة فى الفتن ص ١٤ ، والدارمى فى البيوع ١ ، والإمام أحمد فى مسنده بألفاظ مختلفة .

المؤمنون مطمئنة قلوبهم بذكر الله ، فهى غير مضطربة ، ولا قلقة ولا ممزقة بين الغايات المختلفة والمناهج المتباينة ،وغير شاكّة وغير مرتابة ٠

المراد بذكر الله فى الآية :

﴿ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ أيًّا كان تفسير هذا الذكر ، وسواء كان بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار ، أم كان بالسماع ، فقلوبهم مطمئنة بهذا الذكر ، يجدون فيه أنسًا عند الوحشة ، ويجدون فيه طمأنينة عند القلق، وأمنًا عند الخوف ، وملاذًا عند الشدّة ، وفرجًا عند الكربة ، كما وجدنا أيوب عندما مسّه المرض والضرّ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] وكما وجدنا ذا النون حينما التقمه الحوت ، وأطبقت عليه الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، لم ينس ذكر الله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] وكما وجدنا موسى عليه السلام حينما خرج مهاجرًا وتوجه تلقاء مدين وعاش فى هـــذه الــغربة وحيدًا غــريبًا قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وفتية أهل الكهف حينما وقفوا تجاه قومهم وهم يعبدون الأصنام فلجأوا إلى الله وقالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] ٠ فهذا هو الذكر الذى تطمئن به القلوب ٠

ذكر الله أن يذكر الإنسان ربّه ويدعوه ويناجيه ويناديه فى ساعة الكربة والمحنة كما نادى نوح ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾[الصافات: ٧٥] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر : ١٠ : ١٢] والمؤمن إذا ذكر الله تعالى اطمأن قلبه مهما ألمت به الخطوب ، وادلهمت من حوله الكروب ، وأحاطت به الشدائد والظلمات ٠

وهذا الذى ذكرنا اتجاه فى تفسير (ذكر الله) عزّ وجلّ فى الآية ، وهناك

اتجاه آخر فى تفسير ذكره بمعنى ذكر وعده سبحانه وتعالى ، للمؤمنين بالعزّ والتمكين والحياة الطيبة فى الدنيا : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] ، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[البقرة: ٢٥٧] ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] فيذكر المؤمن هذا كله فيطمئن قلبه بوعد الله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩ ، الرعد : ٣١] .

والمعنى : أنهم يطمئنون بذكر الله تعالى لهم ، ووعده إياهم بالنصر والتمكين .

أو بمعنى ذكر آلاء الله وآياته سبحانه وتعالى فى الأنفس والآفاق ، ودلائل وحدانيته وقدرته ورحمته ، فإذا ذكر هذا أيضًا اطمأن قلبه بالإيمان وازداد يقينه .

أو أن ذكر الله فى الآية هو القرآن الكريم ، فالقرآن ذكر ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل : ٤٤] فالقرآن ذكر الله عزّ وجلّ ، يُذكر بالله فى كل آية من آياته ، وبه تطمئن القلوب ، فلاتحتاج إلى آية أخرى غير هذا القرآن كهؤلاء الذين يطلبون آيات غير هذه الآية العظمى وقالوا:﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

وقد اختار بعض المفسرين هذا الوجه وقال : هو أحسن الوجوه ؛ لأن الموضوع يتعلق بالقرآن ، وبالحديث عن القرآن ، وباقتراح آية أخرى غير القرآن ، وكأنه يقول : المؤمنون لا يطلبون شيئًا آخر بل قلوبهم مطمئنة بهذا الكتاب ، وهو وحده آية أىّ آية ، ومعجزة أىّ معجزة ، فلا يطلبون بعدها المزيد . .

ولا مانع أن يشمل ذكر الله فى الآية هذه المعانى كلها ، فالمؤمنون قلوبهم مطمئنة بهذا كلّه ، فلا يعتريها ريب ، ولا يطرأ عليها قلق ، ولكنها ساكنة مطمئنة ، والطمأنينة معناها السكون ، وأصلها فى الحسيات ، كاطمئنان الأرض ، ثم نقل إلى المعنويات .

السعادة الحقة فى طمأنينة القلوب بالإيمان :

﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنَّ الْقُلُوبُ ﴾ ألا أداة استفتاح لتأكيد الجملة والتنبيه على مضمونها ، وعلماء البلاغة يقولون : قدّم ﴿ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ للدلالة على أنه ليس بذكر غيره بل بذكر الله وحده ، والإنسان إذا جمع ما شاء من مال ، وارتقى ما شاء من مناصب ، وأنجب ما شاء من بنين ،وهيأ ما شاء من أنعام وحرث من زينة الحياة الدنيا ، فلن يمنحه هذا كله طمأنينة القلب ، وأصحاب الملايين والبلايين كُثر ، ولكنهم قلقون . وهذا ما نراه عند كثير من المرتابين والشكّاك والملاحدة ، إنهم لا يشعرون بطمأنينة القلوب مع ما هم فيه من مال وبنين ونعمة كانوا فيها فاكهين ، فكثيراً ما تكون الأموال والأولاد أداة تعذيب لهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٥٥] .

فالمسألة إذن ليست مسألة مال ولا أولاد ، ولا أنعام ولا حرث ، ولا قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، فالسعادة إنما تنبع من الطمأنينة ، والطمأنينة تنبع من الداخل لا من الخارج ، من القلب ، ولذا نجد أهل الحضارة المادية المعاصرة الذين استطاعوا أن يحلقوا فى الهواء كالطيور ، وأن يغوصوا فى البحار كالحيتان ، وأن يمشوا فوق الأرض كالشياطين ، لم يسعدوا في حياتهم الدنيا ، ومن هنا نراهم يسمون الحضارة المعاصرة (حضارة القلق) ويسمون عصرنا هذا (عصر القلق) ، ولذلك تكثر الأمراض النفسية ، والعيادات النفسية فى أمريكا تعد بالآلاف بل بعشرات الآلاف ، والناس يشكون من العقد ومن الاضطرابات العصبية والنفسية ومن الضيق بالحياة ، فالحياة لا طعم لها ولا معنى عندهم ، ولم تسعدهم معطيات الحضارة المادية الهائلة التى بلغت بأحدهم أن يضع يده تحت صنبور المياه فينزل الماء تلقائيًا دون أن يحرك له ساكنًا ، وقد كتب صحفى